حوار أكثر من جريء

ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ

عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ

المعجزة الكبرى

((معجزة إحدى الكُبَر))

تعرض لأوّل مرّة في العالم

اقرأ

المهندس عدنان الرفاعي

دار الخير

المقدّمــة

.. يعرفُ المؤمنون اللهَ تعالى من أيِّ منظارٍ ينظرون به إلى أيِّ شيء، لأنّ كُلَّ شيءٍ يدلُّ على الله تعالى... ولا يَقِفُ أصحابُ النفوس المظلمة عند أيِّ حقيقة، لأنّ الظلمات ليست أكثر من مجرّد دليلٍ على عدم وجود النور..

.. والموروثُ الفكريُّ ـ كمخزونٍ تاريخيٍّ تتوارثه الأجيال ـ يدفعُ باتّجاه معرفةِ اللهِ تعالى وإدراك الحقيقة، عندما يُغذّي هذا الإدراك، دون أن يكون عقبةً أمام رؤية الحق والاتّجاه نحوه.. وَمَثَلُ ذلك كمثل التربة الخصبة حينما تُغذّي البذرة دون أن تكونَ حاجزاً صلباً أمام أُفُقِ نموِّها..

.. صحيحٌ أنّ الإبداعَ لا يُنْتَجُ في فراغٍ تاريخي، إلاّ أنّ لحظةَ الإبداع الفكري تُولَدُ خارج رحم الزمان والمكان.. فالحوامل التاريخيّة للفكر والعلم والفلسفة ـ كتراث مُؤطّر ينساب بين ضفتي الزمان والمكان ـ هي جدران تحجبُ البصيرة عن رؤية شمس الإبداع..

.. فحينما يتحرَّرُ الإنسانُ من الضغطِ السلبي للأفكار السابقة لتلك اللحظة التي يجبُ أنْ يُدركَ فيها ما لم يُدركْهُ سابقاً.. حين ذلك تمتدُّ بصيرتُهُ إلى آخرِ مدىً ينتهي عنده فِكرُه.. وحين ذلك ـ فقط ـ يكون حُرّاً، مالكاً إرادته، عارفاً ذاته، مُهيّأً لإدراك الحقيقة..

.. حينما نُدركُ أنَّ الإيمانَ والكفرَ ـ والحقَّ والباطل ـ ليسا حدوداً جغرافيّة بين الشعوب، وليسا سياقاً تاريخيّاً مصبوغاً بألوان الخصوصيّات القوميّة، وليسا زُمَرَاً دمويّة تُميّزُ الأفرادَ عن بعضهم، وليسا مُجرّد ولادة جسديّة في هذا الدين أو ذاك وفي هذا المذهب أو ذاك.. حينما نُدركُ ذلك، نكون قد اتّجهنا نحو إدراك حقيقة الإيمان، وحقيقةِ الحقِّ الذي أتت من أجله جميعُ الرسالاتِ السماويّة.. ونكون قد وضعنا أنفسنا في سبيلِ الفكر الحيّ الذي لا تُنتَجُ ـ في ساحته الفكريّة ـ حدودٌ مُبهمة من مادة التاريخ واستثناءاته، ولا رؤىً دون نور، ولا عقيدةٌ تراثيّة دون عُمقٍ متماسكٍ من البرهان والدليل..

. . ومن عظمةِ كتابِ اللهِ تعالى **(القرآن الكريم)** انتماؤُهُ إلى عالم الكليّات **(عالم الأمر)**. ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَاۚ﴾ [**الشورى: ٥٢**] . . بينما المفاهيم الجزئيّة التي يُدركها البشر منه خلال التاريخ تنتمي إلى عالم الجزئيّات **(عالم الخلق)**. . وبالتالي فإنَّ اعتبار إدراك الأجيال السابقة لدلالات القرآن الكريم معياراً وسقفاً لما يحملُ من دلالاتٍ ومعانٍ، هُو ـ في النهاية ـ وجهٌ من أوجه الكفر ببيان الله تعالى في انتماء كتابه **(القرآن الكريم)** إلى عالم الأمر، وفي كونه تبياناً لكلِّ شيءٍ، وفي كون نهاية دلالاته [عمق التأويل] فوق إدراك المخلوقات ـ دون استثناء ـ كما يُبينُ الله تعالى في كتابه الكريم . .

. . والروحُ «بمعنى الصلة والقربى والمدد من الله تعالى، حسب التعريف القرآني للروح» الذي يصفُ كتابَ اللهِ تعالى **(القرآن الكريم)**، ويصفُ الفطرةَ النقيّةَ الطاهرةَ التي فطرَ اللهُ تعالى الناسَ عليها، واقترابَ الإنسانِ منها، يتفاضلُ به البشرُ عن بعضهم، حسب درجة امتلاء نفسِ كلٍّ منهم بهذا الروح، الذي يزدادُ في النفس مع اقترابها من الحقّ، وينقصُ فيها مع ابتعادها عن الحق . .

. . وبالتالي فانطلاقُ الإنسان ـ في تفكيره ـ من دائرةِ التكرار، إلى سبيلِ التقليد، إلى حُجّةِ المنطق العقلاني، هو سموُّ إدراكِه في ساحة العالم الكوني، مُتجاوزاً العالم الحيواني، مُتّجهاً نحو العالم الروحي، وبالتالي نحو إدراك حقيقة الكمال النفسي، والامتلاء بالروح . .

. . فمن لم يدركْ الفارق بين اصطناع الإنسان على أساس تطوّرٍ فكريٍّ، ماهيّتهُ الإدراكُ الحقُّ لِدلالات كتاب الله تعالى، وحامله التجديد المُبَرهَن من كتاب الله تعالى، وصياغته من أبجدية الحريّة الفكريّة والتجرّد لحظة النظر إلى الحقيقة، وبين اصطناع الإنسان في قوالبَ تاريخيّة مُسبقة الصنع، من خلال غسل فكره وإفراغ دماغه من أيِّ ومظة نور قد تدفعه نحو رؤية الحق . . من لم يُدرك هذا الفارق، لا يُدرك ـ أبداً ـ الفارق بين الله تعالى ومنهجه من جهة، وبين البشر ومناهجهم من جهة أُخرى . .

. . والعقلُ المُبدِعُ الذي يكتشفُ نواميسَ اللهِ تعالى في الكون، يُساهمُ في البرهنةِ

على صدق نزول القرآن الكريم من عند الله تعالى، لأنّ آياتِ الآفاق والأنفس محتواةٌ في كتابِ اللهِ تعالى (**القرآن الكريم**) . .

﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [**فصلت: ٥٣**] . .

. . من هنا . . فإنّ محاربةَ العقل في تعقّله للحقيقة ـ سواء في مادّة الكون أم في نصوص القرآن الكريم ـ هو محاربةٌ لِمنهجِ اللهِ تعالى، سواءٌ في كتابه المنشور (الكون)، أم في كتابه المقروء (**القرآن الكريم**) . .

. . العقلُ المُكَوِّنُ لِفكرِ الأمّة يُنتِجُ بقفزاتٍ إبداعيّة من خلال فلسفةٍ فرديّة تنبتُ في مُناخ تفاعلٍ جماعيٍّ، هدفها استنباط المبادِىء الكليّة . . وهذا العقلُ الإبداعيُّ المُكَوِّنُ لفكر الأمّة يمدُّ جسورَه إلى الأمام، مُتجاوزاً السقف الفكريَّ للأمّة، ولذلك نراه ـ خلال التاريخ ـ في خندق العداء مع معظم أفراد الأمّة، وهدفاً لأبواق الشياطين وسهامِهم . .

. . وبعد أن يسحبَ فكرَ الأمةِ إليه دافعاً إيّاها ـ على جسوره ـ نحو الأمام، وبعد أن يسودَ بين أفرادِها، ويصهرَ أبناءها في إطار إنتاجه الإبداعي الذي يُصبحُ مسلّماتٍ يؤمن بها أفرادُ الأمّة، بعد ذلك، يُصبح هذا العقلُ المكوِّنُ عقلاً مُكوَّناً، وسقفاً فكرياً للأمّة، لا تتجاوزهُ إلاّ بإبداعٍ فكريٍّ جديد من خلالِ عقلٍ مكوِّنٍ جديد يسحبها نحو الأمام . . . . وهكذا يتطوّرُ فكر الأمّة نتيجة هذه القفزات الفكريّة الإبداعيّة . .

. . وبمقدار ما ينعتقُ العقلُ المُكوِّنُ لفكر الأمّة من مؤثّرات الضغط التراثي للعقل المُكَوَّن، وبمقدار ما يتمسّكُ بماهيّته الإبداعيّة، بمقدار ما يكون فاعلاً في نقده لذاته، وفي نقده لما أنتجه من العقل المُكوَّن، وبمقدار ما يسمو ويقفز أكثر ـ حاملاً فكر الأمّة معه ـ نحو الأمام . .

. . والحكمة (**كما يُصوِّرُها كتابُ الله تعالى**) تُصوِّرُ لنا الثمارَ الحقَّ لحركة العقل المُكوِّن، سواءٌ في تعقّله لذاته وتقويمها، أم في إنتاجه للعقل المُكَوَّن . . فبالعقل المُكوِّنِ نُدرك الحكمة، وبالحكمةِ نصون العقلَ ونصحّحُ سمتَ اتّجاهه . .

﴿ يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟

ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [البقرة: ٢٦٩]. .

. . والكثيرون ـ ممن يحسبون أنفسهم أوصياء على دين الله تعالى ـ يُحاولون تقديم التاريخ ـ بغثّه وسمينه ـ منهجاً مُكمّلاً لمنهج الله تعالى، تحت شعارات برّاقة تخطف أبصارَ الكثيرين، ممّا يجعل ـ في نفوس المسلمين وغيرهم ـ خريطةَ الفكرِ الإسلاميِّ دوائرَ متداخلةً من العصبيّات المذهبيّة والطائفيّة، يتماهى فيها الغثّ بالسمين. . وهم بذلك يدخلون سراباً يُخفون به الحقّ الذي يحملُه كتابُ الله تعالى، بحيث لا يُرى ـ هذا الحقّ ـ إلاّ بعيداً عن سبيل هذا السراب الذي صنعوه بأنفسهم. .

. . وهؤلاء بدفعهم لروايات التاريخ ورجالاته داخل إطار المُقَدَّس الديني، لتكونَ ـ هذه الروايات ـ جزءاً من المنهج، إنّما يدفعونَ المنهج ـ سواء علموا بذلك أم لم يعلموا ـ إلى مذبحٍ فكري، تُقتَلُ فيه أحكامُ المنهج ودلالاتُه، لتدفنَ في ظلمات مقابر التاريخ. .

. . وهم بذلك يسيرون فوقَ حقلٍ من الألغام، يمتدُّ إلى قيام الساعة، يُشَوَّهُ فيه جانبٌ من جوانب المنهج كُلّما انفجرَ لغمٌ من ألغام هذه الروايات في وجه أيِّ حقيقةٍ يحملُها كتابُ الله تعالى ويقرُّها العلم والمنطق. .

. . ولمّا كان لِكلٍّ خصوصيّتُهُ في فهم التاريخ وتأويله وتصديق ما يحلو له وتكذيب ما يُناقضُ توجّهاته الفكريّة الموروثة، فإنّ دفعَ كُلٍّ لتأويله التاريخي إلى ساحة المنهج هُو ـ في النهاية ـ تجزئةُ منهجِ الله تعالى إلى مناهجَ يختلفُ أتباعُ كلٍّ منها مع الآخرين، ويتّهمُ أتباعُ كلٍّ منها الآخرين بالخروج عن الحقّ. . وبذلك يكون التاريخ ـ بتناقضاته التي لا تنتهي ـ قد جُعلَ شريكاً لمنهج الله تعالى، ويكون رجالاته قد جُعلوا شركاء لله تعالى. .

﴿وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا كُلُّ حِزْبِۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ [الروم: ٣١ ـ ٣٢]. .

. . فالأُمم لا تنهض بالتاريخ، ولا بالتهريج والخطابات الرنّانة التي تقود الناس من عواطفهم كالمناديل الحمراء التي تقود الثيران في حلبات المصارعة، إنّما تنهض بالعقل والفكر والعمل البنّاء. . . والحقائقُ التاريخيّة تُؤخذ بالمقاربة، ولا يُمكن الوصول إليها ـ

كحقيقة علميّة ـ إلاّ بإعادة عجلة الزمن إلى الوراء. .

. . وبينما يصوِّرُ القرآنُ الكريمُ أحداثَ التاريخ كما يعلمها اللهُ تعالى، فإنَّ البشرَ يكتبون تاريخهم بأيديهم، وبمدادِ أهوائهم، وأقلام عصبيّاتِهم. . ولو وُجدَ ـ من رجالات التاريخ ـ من جسّدَ مُرادَ الله تعالى وحقيقةَ أحكامِ منهجه دون أيِّ خطيئة، لكان من الملائكة، ولما كان منتمياً إلى التاريخ. .

. . فحينما يُخاطبنا اللهُ تعالى بقوله:

﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٤]. .

. . إنّما يُريدُ جلّ وعلا ربطنا ـ كفكرٍ وتدبّرٍ واستنباطٍ مستمرٍّ للحقيقة ـ بمنهج الرسالة الذي لا يموت، والذي يحملُ لكلِّ جيلٍ ما يكفي لحلِّ مشاكله الحضاريّة، ولا يُريدُ ربطنا بالتاريخ وأشخاصِه، فالأشخاصُ مهما كانوا ـ بعيداً عن المنهج وتعلّقهم به ـ يموتون، وبالتالي فتعلّقُ المنهج بشخصهم التاريخي دونَ نصِّ الرسالة (القرآن الكريم)، يعني الانقلاب على الأعقاب بعد موتهم. . فاللهُ تعالى يقولُ لنا: لا تبحثوا عن المنهج في التاريخ، بل ابحثوا عن التاريخ في المنهج. .

. . وللأسف لم نستفد ـ نحن المسلمين ـ من هذا البيان القرآني، فما زال الكثيرون يُقدّمونَ الروايةَ التاريخيّة ـ مجرّد الزعم بنسبها إلى الرسول ﷺ ـ على أنّها جزءٌ من المنهج، دون التحقّق من موافقتها للمنهج الذي أتى به الرسول ﷺ وهو القرآن الكريم، أو من عدم موافقتها، وما زال الكثيرون يقومون بمكيجةِ الخطيئة التي تخدم عصبيّاتهم، وبمحاولةِ خلقِ عورةٍ للحقيقةِ التي تهدمُ تلك العصبيّات، وكأنّنا نُقدّس التاريخ على حساب المنهج. . وما زلنا نُقدّم الشيخ والمذهب والإمام وما يُنسب إليهم، على حساب إدراكنا وتدبّرنا لكتاب الله تعالى، مُتمثّلينَ الخطيئة التي سيشكونا ـ بها ـ الرسولُ ﷺ يوم القيامة. .

﴿ وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا﴾ [الفرقان: ٣٠]. .

. . فلا يُمكن للتاريخ ـ الذي يصنعه الإنسان بيده، ويكتبه بيده ـ أن يكونَ أميناً على حفظ

منهج الله تعالى . . وقد اختبرَ اللهُ تعالى البشرَ في حفظِ منهجه من خلال إرسال رسله السابقين في شيعِ الأوّلين . . لأجلِ ذلك تعهّد اللهُ تعالى بحفظ منهجه الخاتم (القرآن الكريم) . . •

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى شِيَعِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾[الحجر : ٩-١٠].

. . ولا يُمكنُ لمعجزاتِ عالم الخلق (داخل إطار الزمان والمكان)، أن تكونَ المعجزةَ المُصدِّقةَ لِمنهجِ الرسالة الخاتمة . . فمنهجٌ صالحٌ لكلِّ زمانٍ ومكان، لا بُدّ له من معجزةٍ صالحةٍ لكلِّ زمانٍ ومكان . .

. . من هُنا كان المنهجُ وكانت المعجزةُ فوقَ عالم المكان والزمان، وكان القرآنُ الكريمُ معجزةً ملتحمةً بالمنهج، وكافيةً عن كلِّ المعجزات التي يطلبها البشر لصدق نزول القرآن الكريم من عند الله تعالى . .

﴿ وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝٥٠ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [العنكبوت: ٥٠ - ٥١]. .

. . ومن هنا كان القرآنُ الكريمُ منهجاً كاملاً، يحملُ في ظاهر عباراته وباطنها تبياناً لكلِّ شيء . .

﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ [النحل: ٨٩].

. . ومن هنا بدأتُ بحثي في كتابِ اللهِ تعالى، بأدواتٍ مُستنبطةٍ من كتابِ اللهِ تعالى، وبمقدّماتٍ من كتابِ الله تعالى، مُبحراً ـ بها ـ في مركب العقل المجرّد والمنطق الحر والفِكر المُبرهَن، باتّجاه نتائجَ يحملُها كتابُ الله تعالى، تاركاً خلفي كُلَّ موروثٍ فكريٍّ لا يحملُ دليلاً من كتاب الله تعالى . .

. . وسنرى هذه الحقيقة ـ إن شاء الله تعالى ـ في هذا الحوار الجريء، حيثُ ننطلقُ من تعريف المُعجزة، ومن تميّز القرآن الكريم **(معجزةً ومنهجاً)** عن الكتب السماويّة ومعجزاتها، مُبحرين في الخصائص الإعجازيّة التي يحملها القرآنُ الكريمُ، وصولاً إلى مُعجزةِ إحدى الكُبَر **(معجزة العدد ـ ١٩ ـ في القرآن الكريم)** . .

.. ثُمَّ بعد ذلك ننطلقُ نحو استثمار النظريّة الإعجازيّة، مُبرهنين على عظمة المعجزة القرآنيّة، وعلى تكاملها مع حقيقة الدلالات الحقّ التي تحملها صياغةُ النصّ القرآني، مُستنبطين بعضَ الدلالات والأحكام التي بقيت مجهولةً ـ وللأسف ـ منذ نزول القرآن الكريم حتى الآن..

سنرى ـ إن شاء اللهُ تعالى ـ بعد الانتهاء من قراءة هذا البحث، كيفَ غفلنا ـ نحن المسلمين ـ أربعةَ عشر قرناً عن كونِ المفردةِ القرآنيّةِ ذاتَ المعنى والماهيّةِ التي يتّصفُ بها ما تصفه وتسمّيه هذه المفردة، وعن كون المفردات القرآنيّة اللغةَ الفطريّةَ التي علّمها اللهُ تعالى لآدمَ (أبي البشر) في السماء، قبل أن تحلَّ نفسُهُ في جسدِهِ ويهبطَ ـ بهذه المفردات ـ إلى الأرض، وكيف غفلنا عن كونِ الحرفِ القرآنيِّ اللبنةَ الأولى للمعنى، والأبجديةَ الأولى للوجودِ ذاتِه..

.. وسنرى ـ إن شاءَ اللهُ تعالى ـ من خلال برهانٍ رياضيٍّ لا يعرف الكذب والخداع، كيف يستحيلُ على المخلوقات أن تقومَ بصياغةِ نصٍّ كالنصِّ القرآني، وأنَّ القرآنَ الكريمَ منهجٌ كاملٌ يحملُ تبياناً لكلِّ شيءٍ في هذا الكون، ولا يحتاجُ ـ اكتماله في حملِ كُليّات الأحكام ـ إلى أيِّ نصٍّ آخر، كما يتوهّمُ الذين يُقدّمونه نصّاً ناقصاً تُكمله السنّةُ الشريفة..

.. فالسنّةُ الشريفةُ تُفسّرُ القرآنَ الكريمَ، وتبيّنُ كليّاتِ أحكامه وتُفصِّلُها، ولا تُكمله..

﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [النحل: ٤٤]..

.. وهي قِراءةُ الرسول ﷺ لكتابِ الله تعالى ـ كما سنرى إن شاء الله تعالى في هذا البحث ـ من خلالِ إتيان الله تعالى لرسوله ﷺ سبعاً من المثاني، يُبحرُ خلالَها في أعماق القرآن الكريم لاستنباطِ دلالاتِه الباطنة..... ومن لا يُدركُ هذه الحقيقة الجليّة في كتاب الله تعالى، غائب عن إدراك حقيقةِ القرآنِ الكريم، وبالتالي فقولُهُ ـ في هذا الأمر ـ شهادةُ زور..

.. وسنرى ـ إن شاء اللهُ تعالى ـ بعد قراءةِ هذا البحث، أنَّ العدوَّ الأوّلَ للإسلام وللحقيقة، هو الفهمُ الخاطئ للإسلام، وأنَّ أعظمَ عملٍ يخدمُ الإسلام والحقيقة، هو الفهمُ الحقُّ للإسلام، وإيصالُ ذلك إلى الناس..

المهندس عدنان الرفاعي